جيـــــترا

مسرحية فى فصل واحد

المشهد الأول

جيترا : أأنت رب السهام الخمسة ، إله الحب ؟

ماداتا : إنى أنا المولود البكر فى قلب الخالق ، أنا من أربط بروابط من السعادة والألم حيوات الرجال والنساء .

جيترا : أدرى ، أدرى ، ماذلك الألم ، وما تلك الروابط . ومن أنت الآخر يا سيدى ؟

ڤاستا : أنا صديقه ڤاستا ، ملك الفصول . إن الموت والهرم ليخترمان العالم حتى العظم ولكنى أدركهما ، وأهاجمهما بثبات ، أنا الشباب الخالد .

جيترا : إنى أنحنى لك يا أيها الاله ڤاستا .

ماداتا : فما تذرك الخطير يا أيتها المليحة الغريبة ؟ لماذا تذبلين بالزهد والاماتة شبابك الغض ؟ لا يليق بعبادة الحب قربان كهذا . من أنت ، وماذا تلتمسين ؟

جيترا : أنا جيترا ابنة البيت الملكى من مانيبور ، وقد من الاله شيڤا برحمته الالهية على أجدادى الملوك فوعدهم أن يرزقهم بسلالة من الابناء الذكور ، غير منقطعة أبداً . ولكن الكلمة المقدسة عجزت عن تغيير شرارة الحياة فى رحم أمى . ومع أنى كنت أنثى فقد جئت قوية المراس كذلك .

ماداتا : نعم ، وذلك الذى دعا أباك إلى أن ينشئك تنشئة البنين . فقد علمك يرى القوس ، وواجبات الملك جميعاً .

جيترا : نعم ، وهذا الذى من أجله تزييت بزى الرجال ، ونبذت عزلة المرأة فى خدرها . فأنا أجهل مكر النساء فى اجتذاب القلوب . إن يدى لتقويان على طى القوس ، غير أنى لم أتعلم رماية كيوبيد ولا سحر العيون .

ماداتا : لا يحتاج ذلك إلى تعلم ، أيتها المليحة . إذ العين تعمل عملها غير معلمة ، وعند من أصيب فى الصميم من قلبه الخبر اليقين .

جيترا : لقد خرجت ذات يوم للتصيد ، فتجولت وحدى ، فانتهيت إلى الغابة على ضفة نهر البورنا فربطت جوادى إلى جذع شجرة ودخلت إلى حرج كثيف فيها ، مقتفية أثر ظبى ، فوجدت نمشى ضيقاً متعرجاً يمتد فى خلال ظلام الأغصان ؛ وكانت أوراق الشجر تهتز بصرير الحشرات حينما جئت فجأة إلى رجل قد اضطجع على فراش من الورق اليابس ، قاطعاً طريقى ، فطلبت منه بجرفة أن يتنحى جانباً عن الطريق ، ولكنه لم يكترث ، فوخزته عندئذ بالطرف الحاد من قوسى فى شىء من الاحتقار .

فانتفض من فوره قائماً ، وكانت أطرافه مستقيمة وافية ، فكأنه لسان من اللهب قد اندلع من كومة من الرماد ؛ وارتسمت على زوايا فمه بسمة عابثة قد تكون من جراء رؤيته طلعتي الصيانية ، فأحسست حينئذ — أول مرة فى حياتى — حس امرأة ، وشعرت بأن رجلا كان أمامى .

مادانا : فى الساعة المباركة أعلم الرجل وللمرأة هذا الدرس البليغ ليعرفا نفسيهما . وماذا تم بعد ذلك ؟

جيترا : وفى شىء من الوجل والتعجب سألتــه قائلة : « من أنت ؟ » فأجابنى : « إننى آرجونا من بطن كورو العظيم » ، فجمــدت جمود الصــنم ، وفاتنى ان أخر ساجدة له .

أكان ذلك حقاً آرجونا ، معبود أحلامى ؟

أجل ! فقد طرق سمعى منــذ أمد بعيد أنه نذر على نفســه التزام العزوبة إثنا عشر عاماً . ولقد طالما ساقنى طموح صباى إلى تحديه ، ودعوته إلى مبارزتى بالرمح لانازله متنكرة فى جولة واحدة فأثبت له براعتى فى منازلته بالسلاح .

آه ، أيها القلب الأحمق ، إلى أى مدى ذهب ادعاؤك ؟ أواه لو أتيح لى أن أستبدل حفنة تراب تحت قدميك بشبابى وأمانيه كلها ، إذاً لكانت تلك لعمة عظمى . ولست أدرى فى أى لجة من الأفكار كنت غريقة حين رأيته يختفى بين الأشجار .

أيتها الحمقاء ! لا حييته ، ولا كلمته بكلمة ما ، ولا طلبت منه الصفح ! بل وقفت أمامه وقفة امرأة متوحشة ، إذ كان ينطلق عنك زارياً .

وفى اليوم التالى خلعت عنى ثياب الرجال ، وتحليت بالقلائد والخلاخل والاساور ، ولبست ثوباً من الحرير الأرجوانى . فكان هذا اللباس الذى لم أعتــده يحتاط بمارى الزائل . إلا أنى بادرت إلى البحث عن سؤلى فألفيت آرجونا فى معبد غابة الاله شيڤا .

مادانا : قصى على القصة حتى نهايتها ، فانى أنا الاله ابن القلب ، وإنى لافهم سر هذا الاغراء .

جيترا : لست أتذكر ما قلت وما تلقيت من أجوبة عليه إلا تذكراً غامضاً ، فلا تسألنى أن أقص عليك الأمر بحذافيره . لقد انقض العار على انقضاض الصاعقة ، ولــكنه لم يستطع أن يحطمنى ، فها أنا ذى فى غاية القسوة ، وفى شبه الرجل تماماً . كانت كلماته الأخيرة : « لقد نذرت العزوبة على نفسى ، فلست أصلح أن أكون لك زوجاً » . كانت تلك الكلمات كالابر المحمارة من شدة الاحماء تخرق أذنى وأنا فى طريقى قافلة إلى الدار .

فيا لنذر الرجل ! إنك — وأنت إله الحب — لتعرف يقيناً أن قديسين وحكماء لا يحصيهم عدد قد وضعوا الثمار التى جنوا من حياة التقشف الطويل عنــد قدمى امرأة .

لقد كسرت قوسى ، وأحرقت سهامى ، وكرهت ذراعى القوية المرنة المدربة على القوس . فيا أيها الاله ، يا أيها الحب ، لقد أذللت زهو رجولتى الباطل إلى الأرض ، وسحقت دربتى التى هى دربة الرجال ، فستقطت آثارها ذليلة عند قدميك . فطمنى الآن دروسك . أمددنى بقوة الضعيف ، وأعطنى سلاح اليد العزلى .

مادانا : سأكون رفيقك ، ولأجيئن بقاهر الدنيا آرجونا أسيراً بين يديك ليسمع منك حكم تمرده .

جيترا : لو اتسع لى مجال الوقت لاستطعت أن أخضع قلبه شيئاً فشيئاً ، بغير استعانة بالآلهة . كنت إذا ألزم جانبه على أنى رفيقه ، وأقود جياد مركبته الحربية الشرود ، وأقف على حراسة باب خيمته آناء الليل ، وأعينه فى كل واجبات الجندية الجليلة ، منقذة الضعفاء ، ومقيمة قسطاس العدل حيث يجب . لا شك أنه كان سيجىء يوم ينظر إلى فيه ويتعجب قائلا : « من هذا الفتى ؟ لعل عبداً من عبيدى الذين خدمونى فى سالف أيامى اقتنى أثرى اقتفاء أعمالى الصالحة ؟ » ما أنا بالمرأة التى تغذى بصمت الوحشة قنوطها ، وترضعه بدموعها فى الليل ، وتغطيه بابتسامتها الصابرة فى النهار ، فكأنها أرملة منذ الولادة . لن تسقط زهرة املى على الأرض قبل أن ينضج ثمرة إلا أنه لكى يتمكن المرء من تعريف الناس بحقيقة نفسه ، وحملهم على احترامها ، فعليه أن يسعى إلى ذلك طوال عمره . لذلك فقد وقفت ببابك أنت ، يا إله الحب ، قاهر العالم . وببابك أنت يا أيها الاله الفتى فاسنتا ، إله الفصول ارفعا من جسمى هذا الجور الأبد ، هذا القبح الشنيع ، واجعلانى يوما واحداً جميلة ، رائعة الجمال ، فى مثل جمال الحب المزدهر فى قلبى فجأة . هبا لى من لدنكما يوماً واحداً قصيراً من الجمال الكامل ، ولكما منى الطاعة فى الأيام القابلة .

مادانا : لقد استجيبت دعاءك يا أيتها السيدة .

فاسنتا : لا يوماً واحداً فحسب ، بل ستكسو روعة أزهار الربيع أطرافك سنة كاملة .

المشهد الثانى

آرجونا : أكنت أحلم ، أم كان ما رأيت عند البركة هناك حقيقة ؟ لقد كنت جالساً على الخميلة مسرحاً الذهن فى السنين الماضية ، فى ظلال المساء المائلة ، حين بدت بين طيات ورق الشجر القاتم ببطء هيأة من جمال اتخذ شكل امرأة سوية التكوين ، ووقفت على لوحة بيضاء من الرخام عند ضفة الماء ، فكأن قلب الأرض كان يخفق شدة فرح تحت قدميها البيضاوين العاريتين ، فحسبت أن أقنعة بدنها متقشعة ، من الغبطة فى الهواء تقشع ضباب الفجر الذهبى من أعالى الربى الشرقية الكاسية بالثلوج . وقد انحنت على مرآة البركة الوضيئة ورأت انعكاس وجهها عليها ، ثم نهضت محزونة ، ووقفت جامدة ؛ ثم تبسمت ومدت ذراعها اليسرى إلى شعرها فأصلحته بحركة لا تتم على اهتمام وتركته ينسدل فيصل الى الأرض محاذياً قدميها . وقد كشفت عن صدرها ونظرت الى ذراعيها فكانتا فى أحسن تكوين ، زاخرتين بقوة عناق عنيف . ولما حنت رأسها رأت نضرة شبابها ، وطراوة أديمها وغضارته ولونه الوردى ، فأشرق وجهها إشراق السرور والعجب . أفكانت — لو فتحت عينيها فى الصباح على براعم اللوتس البيض تطوق جيدها ورأت صورتها فى صفحة الماء — تقضى سحابة نهارها بالتعجب ؟ غير أنه بعد لحظة غاضت تلك الابتسامة من وجهها ، وظهرت فى عينيها غشية الحزن . ثم إنها عقدت ضفائرها

وأسدلت الحجاب على ذراعيها وتحسرت حسرة بطيئة وسارت مثل مساء جميل يغيب فى ظلام الليل . وقد خيل لى أن إدراك غاية المنى قد كشف عنه لى فى طرفة عين ثم ما لبث أن زال . ولكن من ذا الذى يدفع الباب ؟

[تدخل جيترا فى زى امرأة]

واعجبا ! ها هى ذى . فاطمئن يا قلبى لا تخيفنى أيتها السيدة فأنى جندى !

جيترا : سيدى الكريم ؛ أنت ضيفى . وأنا أعيش فى هذا الهيكل ، ولست أدرى كيف أستطيع أن أكرمك .

آرجونا : أيتها السيدة الطيبة ، رؤيتك فى الحقيقة هى غاية الاكرام التى ما بعدها غاية . وإن لم ترى أن من قلة اللياقة أن أسألك سؤالا ، فعلت .

جيترا : ذلك لك .

آرجونا : ما نذرك الخطير الذى يجعلك رهينة هذا الهيكل المنعزل ؛ حاجبة عن أعين البشر جميعاً هذه الملاحة ؟

جيترا : إنى أضم فى قلبى أمنية خفية ، أصلى من أجل بلوغها للرب شيڤا كل يوم .

آرجونا : واحسرتاه ! وأى شىء تستطيعين أن تتمنى أنت ، يا منية العالم بأسره ؟ لقد سافرت من أقصى قم الربى الشرقية التى تطبع عليها الشمس أول آثار أقدامها النارية ، إلى نهاية مغرب الشمس ، ورأيت كل نادر على وجه الأرض وكل جميل وعظيم ، فقولى ماذا تطلبين وعمن تبحثين ، أفض إليك بكل ما عندى من العلم .

جيترا : من أبحث عنه ، معروف لدى الجميع .

آرجونا : أحق ذلك ؟ ترى من يكون ذلك السعيد الذى اصطفته الآلهة ، واقتنصت شهرته فؤادك ؟

جيترا : إنه منحدر من أرفع أرومة ملكية . إنه لأعظم الأبطال .

آرجونا : لا تقدمى — يا سيدتى — ثروة كالتى أوتيت من الجمال إلى مدح الشهرة المتغيرة الكاذبة . فالشهرة الكاذبة تنتشر على الألسنة انتشار ضباب أول الفجر قبل الشروق . خبرينى من ذلك البطل العظيم ، سليل أسمى البيوتات المالكة ، الذى تبحثين عنه ؟

جيترا : أراك — يا أيها الناسك ، تغار من شهرة غيرك من الرجال . ألم تعلم بأن بيت كوروس الملكى أرفع البيوت المالكة فى العالم وأبعدها شهرة ؟

آرجونا : بيت كوروس ؟

جيترا : ثم ألم تسمع بأعظم اسم فى ذلك البيت الذى طبقت شهرته الآفاق ؟

آرجونا : دعينى أسمع ذلك من شفتيك أنت .

جيترا : يا آرجونا ، يا غالب العالم بأسره ، لقد اخترت ذلك الاسم الخالد من أفواه الناس ، وأخفيته بعناية فى قلبى . أيها الناسك ، مالك بادى القلق ؟ أليس فى ذلك الاسم من شىء غير البريق الكاذب ؟ قل ذلك ، فلن أتردد فى كسر هذا الحق من قلبى لأرمى بجوهرته الكاذبة فى التراب .

آرجونا : كونى أنت اسمه وشهرته ، وكونى أنت بطولته وشجاعته ، إن حقا وإن كذبا ؛ ولا تبعديه عن قلبك رحمة به ، لأنه جاث عند قدميك الآن .

جيترا : أأنت آرجونا ؟
آرجونا : نعم ، أنا هو ، الضيف الطارق بابك ، الظامىء حباً .
جيترا : إذاً فليس حقاً أن آرجونا قد نذر العزوبة على نفسه أحد عشر عاما .
آرجونا : ولكنك قد بددت نذرى تبديد القمر نذر الليل فى الأظلام .
جيترا : صه ! يا للعار ! ما الذى رأيت فى حتى كذبت نفسك ؟ عمن تبحث بهاتين العينين السوداوين ، وهاتين الذراعين البيضاوين إن كنت باذلا لها ثمن استقامتك . إنى على علم بأنها ليست تلك نفسى ؛ فلا ريب أن هذا لن يكون هو الحبّ ؛ وليس هو أسمى احترام الرجل للمرأة . إنه لمن دواعى الأسف أن هذا التنكر العاجز ، أعنى الجسد ، يعمى الانسان عن نور الروح الخالد . لقد عرفت الآن ، أصدق معرفة ، أن صيت بطولتك يا آرجونا صيت مكذوب .
آرجونا : عجباً ، إنى لشاعر بتفاهة الصيت الذائع والافتخار بالشجاعة . ويخيل إلى أن كل شىء موهوم ، وأنك أنت وحدك الكاملة . أنت ثراء هذا العالم ، غاية الغايات كلها ، وهدف المساعى جميعها ؛ أنت المرأة الوحيدة . إن فى العالم غيرك لا يعرفهن الناس إلا ببطء ؛ فى حين أن رؤياك لحظة واحدة هى رؤية الكمال الأعلى مرة وللأبد .
جيترا : واحسرتاه يا آرجونا ! لست أنا هذه ، وإنما هذا خداع إله ؛ فاذهب ، إذهب عنى يا بطلى . لا تنازل الكذب ، ولا تقدم للوهم الخادع قلبك العظيم . هيا انصرف .

المشهد الثالث

جيترا : كلا ، مستحيل ، مستحيل مجابهة تلك النظرات التى تمسك بخناق المرء إمساك يدى روح جائع فى داخله . مستحيل الشعور بأن قلب المرء ينبض فى داخله نبضاً جاهداً ليقطع نياطه ، وليستحث الصرخة المؤلمة لتسرى فى البدن كله ، ثم يصرفه صرف شحاذ . كلا ، لن يكون ذلك .

[يدخل مادانا و ڤاسنتا]

آه ، يا إله الحب ، ما أروع هذا اللهب الذى ضربت نطاقه حولى ، فأنا أشتعل وأحرق كل ما أمس ؟
مادانا : أريد لأعرف ماذا تم البارحة ؟
جيترا : لقد اضطجعت فى المساء على فراش من العشب انثرت عليه أوراق أزهار الربيع ، وتذكرت جميع ما قد سمعت من عجيب إطراء آرجونا بجمالى ، مترشفة قطرات العسل الذى خزنته طوال النهار المديد قطرة فقطرة ، وقد نسيت تأريخ أيامى السالفة ، نسيان تاريخ أدوار حياتى الأولى ، فشعرت شعور الزهرة إذ لم يبق لها غير ساعات عابرة لتسمع فيها جميع المداهنات الطنانة والهمسات الخافتة من النابات ، ثم تغض طرفها وتحنى تويجها ، وتسقط بنفس واحد إلى التراب بغير صراخ . وبذلك تنتهى القصة القصيرة ، قصة اللحظة الكاملة التى لا ماضى ولا مستقبل لها .

فاستا : قد تزدهر حياة المجد غير المحدودة ثم تنتهي في صباح واحد .

مادانا : كمعنى لا نهائي في مدى أغنية ضيق .

جيترا : لقد دفعتني مداعبة النسيم الجنوبي إلى أحضان النوم ، وتساقطت على جسمي قبلات صامتة من ظلة « المالاتي » الزاهرة فوق رأسي ، فاختارت كل زهرة منها على شعري وعلى صدري وقدمي لنفسها فراشا تموت عليه . وقد أغفيت ، وإني لفي أعماق نومي إذ شعرت بنتة كأن نظرة قاسية متعطشة أشبه ماتكون بأصابع مستدقة من اللهب قد مست بدني الناعس ، فنهضت فرأيت الناسك واقفاً تجاهي . وكان القمر قد جنح إلى الغرب ولاح من بين أوراق الشجر ليرقب أعجوبة الفن المقدس المركبة في هذا الأطار البشري السريع انكساره ؛ وكان الجو معطراً ، وسكون الليل مسموعا من صرير الجنادب ، وكانت صور الأشجار في البركة بغير حراك فوقف وعصاه في يده : مديد القامة ، مستقيمها ، ساكناً كأنه شجرة من أشجار الغابة . وقد خيل إلي حين فتحت عيني أني قد تقطعت بيني وبين هذه الحياة الأسباب ، وأني أولد ولادة خيالية في أرض من الخيال . وقد سقط الحياء إلى قدمي سقوط ثياب محلولة الوثاق . وسمعت نداءه : « أيتها الحبيبة ، يا أعز حبيبة ! » فاتحدت أدوار حياتي المنسية في واحدة ، ولبيت نداءه قائلة : « خذني على علاتي إليك » ، وبسطت له ذراعي . وكان القمر قد غاب وراء الأشجار ، فانسدل غطاء ظلام لف شمل الكون . وكانت السماء والأرض ، والزمان والمكان ، والمسرة والألم ، والموت والحياة قد غاصت جميعها في وجد غالب .

ومع أول شعاع من النور وأول لحن من الطير استيقظت وجلست متكئة على ذراعي اليمنى .

ولبث هو نائماً ، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة غامضة كأنها هلال على صفحة الصباح . وكانت حمرة نور الفجر الوردية تتساقط على جبينه الكريم ، فتحسرت وقت وأمطت أوراق الكرم التي حجبت عن وجهه أشعة الشمس الساقطة عليه ، وتلفت حولي فرأيت الأرض القديمة بعينها ، فتذكرت ماكنت أن أكون ، وعدوت مثل ظبية نفرت مذعورة من ظلها في ممشى غابة قد انتثرت عليه أزهار « الشفالي » . وقد انتبذت زاوية قصية فجلست منطوية بكلتا يدي وجهي ، وحاولت أن أجهش بالبكاء والعويل ، ولكن الدموع لم تترقرق في عيني .

مادانا : وا أسفا يا ابنة البشر ؛ لقد سرقت من المخزن المقدس الشراب السماوي المطر ، وأترعت به ليلة أرضية ، ووضعتها في يدك لتشربي ، ومع ذلك فهأنذا أسمع صرخة الألم هذه !

جيترا : من ذا الذي شربها ؟ لقد بلغت غاية المنى في حياتي ، وهي وصال الحب الأول ، إلا أن ذلك انتزع مني . وسيسقط عني هذا الجمال المستعار ، هذا الكذب الذي يكتنفني ، آخذاً معه أثر ذلك الاتحاد الحلو ، سقوط أوراق الزهرة المعراة . وستجلس المرأة الخجلى من فقرها العارى باكية ليل نهار . يا إله الحب ، إن هذا للظهر اللعين ، الذي يرافقني مرافقة الشيطان ، يسلبني كنوز الحب جميعا — وهي جميع القبلات التي يظمأ قلبي إليها .

مادانا : وا أسفا ! يا لمقم ليلتك الليلة الواحدة تلك ! إن سفينة السرور قد ظهرت للعيان ، ولكن الموج حال دون بلوغها الشاطىء الآمين .

جيترا : لقد دنت السماء من يدى دنواً أنسانى ، لحظة واحدة ، أنها لم تبلغنى . ولكنى وجدت — إذ استيقظت من حلمى فى الصباح — أن يدى قد أصبح منافى ! فواجبى البغيض يحتم على أن أزينه كل يوم ، لارسله إلى معبودى ، فأراه فى أحضانه . فيا إلهى استرجع منى نعمتك التى أنعمت على .

مادانا : وكيف تستطيعين الوقوف أمام حبيبك إذا أنا استرجعتها منك ؟ أليس من القسوة أن تخطفى من شفتيه الكأس وهو لم يكد يجرع جرعة اللذة الأولى ؟ بأى غضب معوض سيلقاك حينذاك !

جيترا : لذلك أفضل من هذا بكثير . سأكشف له عن نفسى الحقيقية التى هى أسمى وأنبل من هذا الظهر ، فان رفضها وطردنى وكسر قلبى ، احتملت ذلك فى صمت أيضاً .

فاسنتا : اتعظى بنصحى ، إنه متى انتهى فصل الازدهار بمجىء الخريف فحينئذ تأتى دولة جنى الثمار الناضجة . ولا بد من يوم يأتى عفواً فتذبل الزهرة المفعمة بالحرارة ، زهرة الجسم ، فيه ، ويتقبل آرجونا مسروراً الحقيقة الثمرة الباقية فيك . فيا أيتها الطفلة عودى إلى عيدك المجنون .

المشهد الرابع

جيترا : لماذا تنظر إلى أيها الجندى الحبيب ؟

رجونا : إنى أشاهد كيف تنسجين ذلك الاكليل . إن التوأمين المهارة والسلام ، يتراقصان فرحين على أطراف أصابعك ، فأنا أنظر وأتأمل..

جيترا : وفيم تفكيرك ياسيدى ؟

آرجونا : أفكر فى أنك بهذه الخفة ، خفة اللمس ، والعذوبة تنسجين أيام منفاى فى إكليل خالد لتتوجينى حين أعود إلى الوطن .

جيترا : إلى الوطن ؟ ولكن ليس هذا الحب لوطن ما .

آرجونا : أليس هو لوطن ما ؟

جيترا : كلا ، لا تتكلم فى هذا أبداً . خذ إلى وطنك كل قوى لا يزول . ودع الزهرة البرية الصغيرة حيثما ولدت ، دعها تمت جميلة فى نهاية اليوم بين الزهر الذابل والأوراق المتساقطة . لا تأخذها إلى قاعة قصرك لترميها إلى أرضه الصخرية التى لا تعرف الرحمة بالأشياء الذابلة المنسية .

آرجونا : وهل من ذلك النوع حبنا ؟

جيترا : نعم ، وليس من نوع آخر غيره . ومالك تأسف عليه ؟ فما خصص لأيام البطالة يجب ألا يعمر أكثر منها . لأن السرور ينقلب إلى ألم حين يغلق عليه الباب الذى كان يجب أن ينفذ منه . فخذه ، واحتفظ به إلى حين ينتهى ، ولا تأذن لكظة مسائك ان تطلب أكثر مما تستطيع رغبة صباحك نيله . لقد مضى النهار ، فالبس هذا

الأكليل ؛ إنى تعبة . خذنى بين ذراعيك أيهـا الحبيب ودع عنك هذه الجهود الضائعة عبثاً فى ألا تنفصل ، تمت فى التقاء شفاهها العذب .

آرجونا : صه ! واصغى يا حبيبتى إلى رنين أجراس المصلين فى هيكل القرية البعيد ينسل محمولا على متن الهواء عابراً الأشجار الصامتة .

المشهد الخامس

فاسنتا : لا أطيق مجاراتك يا صديقى . إنى تعب ، وإبقاء النار ، التى أضرمت ، موقدة واجب عسير . فهذا النعاس ينشانى ، وهذه المروحة تسقط من يدى ، وهذا الرماد البارد يغشى سعير النار . ولقد أفقت من نعاسى ثانية وأنقذت اللهب التعب ، بكل ما أوتيت من قوة ، غير أن هذا لن يدوم .

مادانا : إنى لأعرفك طائشاً كالطفل . فأما لعبك فدائم الحركة ، على الأرض ، أو فى السماء . وأما الأشياء التى بنيت منذ أيام بعناية لا حد لها فها أنت تعصف بها ، غير آسف ، فى لحظة واحدة . غير أن عملنا المشترك يواشك الانتهاء ؛ فأيام السرور المجنحة تطير طيراناً سريعاً ، والعام وهو على وشك الانتهاء يرتمى مغمى عليه فى أحضان السعادة الناضرة .

المشهد السادس

آرجونا : لقد نهضت فى الصباح فوجدت أن أحلامى قد ولدت جوهرة ، ومع أنه لا صندوق لدى أودعها إياه ، ولا تاج ملك عندى أضعها عليه ، ولا سلسلة لى أعلقها فيها ، فانى لا أملك القلب المطاوع على رميها . وهذه ذراعى العسكرية اليمنى تمسكها عابثة ، ناسية ما عليها من الواجبات .

[تدخل جيترا]

جيـترا : حدثنى بأفكارك ، يا سيدى .

آرجونا : ذهنى اليوم مشغول بخواطر الصيد . أنظرى إلى المطر كيف ينهمر هتونا ، فينحدر بغزارة على جوانب الرابية ، وانظرى إلى السحب المدلهمة إذ تطبق كثيفة على الغابة ، وإلى المجارى المتدفقة تدفق الشباب الطائش إذ تجتـاز الحواجز ضاحكة ضحكة الاستهزاء . فى يوم ماطر كهذا ، علينا — نحن الأخوة الخمسة — أن نخرج إلى غابة جيـتراكا لصيد الوحوش الآبدة . ولقـد كانت تلك الأيام أيام سرور ، فكانت قلوبنا تتراقص على قرع طبول السحاب القاصف ، وكانت الأحراج تردد أصوات صرخات الطواويس ؛ ولم تكن الظبى الخجول ليميز وقع أقدامنا إذ تقترب ، لاشتداد ضوضاء المطر وخرير المياه . وقد تترك النمور آثار سيرها على الأرض الرطبة ، فتنم على مخابئها ، فاذا آن لرياضتنا أن تنتهى جرأ بعضنا بعضا على العودة إلى البيت عابرين تلك الفدران الراغية سباحة . ولقد استولى على ذلك الروح الذى لا يعرف الاستقرار الآن . فأنا أشتهى الخروج للصيد .

جيترا : عليك أولا أن تنزل فى القلع الذى تجد فى تتبعه الآن ؛ هل أنت واثق ثقة تامة أن الظبى المذعور الذى أنت فى طلابه فى حاجة إلى أن يصاد ؟ كلا ! ليس كذلك . فهذا الحيوان الآبد كالحلم يخدعك أدنى ما يكون منك منالا . أنظر إلى الرياح كيف يطاردها المطر المجنون الذى يسدد خلفها ألف سهم وهى مع هذا تمضى حرة لم تقهر . كذلك رياضتنا أيها الحبيب . إنك لتطارد روح الجمال السريعة الخطى ، مصوباً نحوها كل سهم فى يديك . إلا أن هذا الظبى السحرى ما انفك يعدو حراً دائماً لم يمسسه أحد .

آرجونا : أليس عندك ، يا حبيبتى ، موطن تنتظر عودتك فيه قلوب شفيقة ؟ موطن كنت قد زينته بخدمتك الرفيقة ، ثم لما تركته خبا ضوءه ؟

جيترا : ولم هذه الأسئلة ؟ هل انقضت ساعات السرور الطائش ؟ ألم تعلم بأنى لا أزيد على ما ترى أمامك شيئاً ! أما أنا فلست أرى وراء ذلك شيئاً أبداً ؛ لأن قطرة الندى التى تتعلق على ذؤابة زهرة « كنسوكا » لا اسم لها ولا وطن ، وهى لا تجيب على أى سؤال . وشأن من أحببت كشأن تلك القطرة السوية من الندى .

آرجونا : أليس لها بهذا العالم من صلة ؟ أفى مستطاعها أن تكون مثل كسر من السماء وقع على الأرض من قلة اهتمام إله طائش ؟

جيترا : نعم .

آرجونا : آه ، وهذا هو السر الذى يشعرنى دائماً بأنى على وشك أن أضيعك . إن قلبى قلق ، وذهنى لا يعرف السلام . اقترنى منى يامن يستحيل وصالها ؛ أسلمى نفسك وأذعنى لقيود الاسم والوطن والنسب ، وأحسى قلبى من كل جوانبه بوجودك ، ليعيش معك فى طمأنينة الحب وسلامه .

جيترا : لم هذه المحاولات الضائعة فى إمساك أصباغ السحاب والاحتفاظ بتراقص الأمواج وروائح الأزهار ؟

آرجونا : سيدتى لا تؤملى أن تخمدى الحب بالأوهام ، أعطينى ما اضمه وما يستطيع أن يستمر أطول من السرور ، وأن يدوم ولو على المكروه .

جيترا : يا بطلى ، إن السنة لما تنته ، وها أنت ذا منهوك القوى . وإنى لأعرف أن من رحمة السماء أن جعلت أمد الزهرة من الحياة قصيراً . فلو مات بدنى هذا وذوى مع أزهار الربيع الأخير إذاً لمات ميتة الشرف ولا ريب ، ومع ذلك فان أيامه معدودة أيها الحبيب ، فلا تدخره واضغطه حتى يجف رحيقه ؛ لأن الفزع يراجع قلبك الملحاح ثانية وثالثة برغبة شديدة لا تشبع ، مراجعة النحلة أزهار الصيف الساقطة ذاوية فى التراب .

المشهد السابع

مادانا : هذه ليلك الأخيرة .

قاسنتا : فجمال جسمك سيعود إلى مذاخر الربيع الدائمة وحرة شفتيك قد تحررت من ذكريات قبل آرجونا ، وسوف تتفتق من جديد تفتق زوج من ورق « آسوكا » الجديدة ، وغضارة أديمك وبضاضته سوف تولد ثانية فى مئات من أزاهير الياسمين المطر .

جيترا : يا أيها الالهان : استجيبا لى دعائى ، واجعلا جمالى هذا يشرق الليلة فى ساعته الأخيرة . بأسطع سنائه مثل آخرة ارتجاف اللهيب إذ يخبو .
مادانا : لقد أوتيت سؤلك .

المشهد الثامن

القرويون: من سيحمينا بعد الآن ؟
آرجونا : لماذا ؟ أى خطر يخيفكم ؟
القرويون: إن اللصوص لينحدرون علينا من التلال الشمالية انحدار السيل من جبل ، لتدمير قريتنا .
آرجونا : أليس لكم فى هذه المملكة من حارس ؟
القرويون: كانت الأميرة جيترا فزع الأشرار جميعاً ؛ فانها حين كانت بهذه الأرض السعيدة لم تخف غير الميتات الطبيعية . وقد ذهبت الآن إلى الحج ، فلا يدرى أحد أين يراها ؟
آرجونا : وهل حارس هذه الأرض امرأة .
القرويون: نعم ، فهى أمنا وأبونا . مجتمعين فى شخص واحد .

[يخرجون . تدخل جيترا]

جيترا : لماذ تجلس وحدك ؟
آرجونا : إنى أحاول أن أتخيل من أى نوع من النساء تكون هذه الأميرة جيترا . إنى لأسمع كثيراً من القصص عنها من الرجال على اختلاف مشاربهم !
جيترا : آه ، ولكنها ليست بحسناء ؛ فليس لها عينان كعينى الجيلتين السوداوين اللتين كأنهما فى سوادهما الموت . وفى طوتها خرق كل هدف تشاء غير قلب بطلنا .
آرجونا : إنهم يقولون عنها إنها رجل فى البسالة ، وفى الرقة امرأة .
جيترا : وتلك فى الواقع مصيبتها العظمى ؛ إذ حين تكون المرأة امرأة فحسب وتلف نفسها حول قلوب الرجال لفاً ، بابتساماتها وتحسراتها وبخداتها وعناقها المتحبب ، فانها تكون إذ ذاك سعيدة . ما فائدة التعليم ، والمآتى العظيمة لها ؟ إنك لو رأيتها البارحة فى ساحة معبد الاله شيفا عند ممشى النابة ، إذاً لمررت من غير أن تتكرم بالنظر إليها .
ولكن هل أضناك جمال المرأة بحيث إنك تبحث فيها عن قوة الرجل ؟
لقد صنعت فراش قيلولتنا من ورق الشجر الأخضر المرطب برذاذ الزبد المتناثر من مسقط الماء فى كهف مظلم كأنه الليل . فبرودة العشب الأخضر الناعم التكدس على الصخور التى يقطر الماء منها ، تقبل عينيك لتنام فدعنى أقدك إلى هناك .
آرجونا : ليس اليوم أيتها الحبيبة
جيترا : ولم لا يكون ذلك اليوم ؟
آرجونا : لقد ترامى إلى أن عصابة من اللصوص قد شارفت السهول فحتم على أن أذهب لاعد السلاح فأحمى القرويين المذعورين .

جيترا : لا حاجة بك إلى الخوف عليهم ؛ فان الأميرة جيترا قد أرسلت قبل أن تبدأ حجها حراساً أشداء إلى ممرات الحدود كافة .

آرجونا : ومع ذلك فاسمحي لى هنيهة أن أبدأ عملى الحربى ، لأشرف هذه الذراع العاطلة بفخر جديد ، وأجعل منها وسادة تليق برأسك .

جيترا : فما قولك إن رفضت السماح لك بأن تذهب ، واحتفظت بك مطوقة إياك بذراعى ؟ أتختطف نفسك متحرراً بفظاظة وتغادرنى ؟ إن كان ذلك فتذهب إذاً . ولكن اعلم حق العلم أن الكرمة التى قد تنقسم إلى جزأين لن تتحد ثانية أبداً . اذهب إذا كان فى ذلك رى غلتك ، ولكن إذا لم تكن كذلك فتذكر أن إلهة السرور مترددة وأنها لا تنتظر رجلا . إجلس هنيهة يا مولاى واقصص على : أى الخواطر الصعبة يزعجك ؟ من ذا الذى شغل ذهنك اليوم ؟ أهى جيترا ؟

آرجونا : أجل إنها جيترا . وإنى لأعجب العجب كله ، من أنها إيفياء لأى نذر تكون قد حجت . ما عسى أن تكون حاجتها ؟

جيترا : حاجتها ؟ ولماذا ؟ وأى شيء كان عندها ؟ عند تلك المخلوقة التاعسة ؟ إن صفاتها الخاصة كجدران سجن تضم قلب امرأة فى خلية عارية . إنها خاملة جدباء . وحبها النسوى لابد له من الاكتفاء بثوب خلق ؛ هى محرومة الجمال . فمثلها مثل روح صباح غام ، جالس على قمة الجبل الصخرية وكل أضوائه قد محتها الغيوم السوداء . لا تسلنى عن حياتها فلن تنعم نعما جميلا لأذن الرجل !

آرجونا إنى متلهف إلى معرفة كل شيء من أمرها ، شأنى فى ذلك شأن غريب قدم بلداً فى جوف الليل ؛ فقصورها وابراجها ، وأشجار جنانها تبدو له مبهمة مظلمة ، وأنين البحر الكئيب يجيء فى دفعات من خلال سكون النوم ، فهو ينتظر مطلع النهار بلهفة ليكشف له عن أعاجيبها الغريبة كافة ، فقصى على بالله قصتها ،

جيترا : وماذا بقى ليقال عنها ؟

آرجونا : إنى لأتوهمها ممتطية صهوة جواد أشهب ، وممسكة مسكة اختيال بالعنان فى يدها اليسرى ، وبالقوس فى يدها اليمنى ، فكأنها إلهة النصر تنثر من حولها الأمل السار ، وهى كاليؤة المتيقظة إذ تحافظ على أشبالها فى مخبئها بالحب الشرس . إن ذراعى ولو أنهما لم تزينا إلا بالقوة المطلقة فانهما جميلتان . أيتها الحسناء إن قلبى قلق كأنه ثعبان قد استفاق من إغفاءته الشتوية الطويلة . تعال ودعينا نتسابق على فرسين سريعين جنباً إلى جنب مثل نجمين صنوين يجريان فى الفضاء ؛ لنخرج من هذا السجن ، سجن الظلمة الخضراء الذى يبعث السبات ، من هذا الغطاء الكثيف العفن ، غطاء الثمل العطر ، من هذا النفس الخانق .

جيترا : أصدقنى يا آرجونا أو لو تمكنت الآن من فورى واستطعت بقوة سحرية أن أحرر نفسى من هذه النعومة الشهوانية ، من الاشراقة الخجلى ، إشراقة الجمال المستطير فرقاً من مسة العالم القوية الصحيحة هذه ، فأرميها عن جسمى رمية الثياب المستعارة أكنت تطيق إذا ما أصنع ؟ أو لو أنى وقفت الآن منتصبة قوية بجرأة التلع الجسور بعيدة عن المكر ، وفنون الاغراء بالضعف ؛ ورفعت رأسى عالياً عالياً رفيعاً كأنى جبل سرو شامخ صنير ، غير عائدة إلى التراب مثل الكرمة ،

أكنت أحلى فى عين الرجل ؟ كلا ، كلا ، لن تطيق ذلك . خير لى أن أنشر دوماً حولى جميع الأعيب الشباب الزائل اللطيفة وأنتظرك صابرة ؛ فان سرك أن تعود فسأصب لك شراب السرور باسمة الثغر فى كأس هذا البدن الجميل . وحين تتعب أو تصيب كفايتك من ذلك الشراب ففى وسعك الذهاب للعمل أو اللعب . وإذا ما أدركتنى الشيخوخة فسأقبل بتواضع وشكر أية زاوية تترك لى . فهل فى هذا سرور لبطولة نفسك لو أراد أن يكون رفيق لعبك فى الليل شريك مساعيك فى النهار ، وتملمت الذراع اليسرى مشاطرة الذراع اليمنى الفخور على حمل العبء .

آرجونا : ما أرانى عرفتك حق معرفتك قط ؛ إنما تتراءين لى آلهة مخبوءة فى صورة من الذهب . لا أستطيع أن أمسك ولا أستطيع أن أوفيك ديونك على هباتك التى لا تقدر بثمن . وهكذا فان حبى ناقص . ولقد أحظى أحياناً فى قرارة نظراتك النامضة الحزينة ، وفى كلماتك المرحة ذات المعانى الساحرة ، بلمحات من مخلوقة تحاول أن تشق جمال جسمها الذابل لتخرج عبارة من خلال غشاء البسمات السديمى نار الألم النفيفة . إن الوهم هو أول صور الحقيقة ؛ إنها تتقدم نحو عشاقها متنكرة . ولكن سيجىء الوقت الذى ترمى فيه حليها وأقنعتها فتقف فى وقار عريان . وإنى لأتلمس فيك تلك النهاية ، تلك البساطة المجردة ، بساطة الحقيقة .

لم هذه الدموع يا حبيبتى ؟ لماذا تنطين وجهك بيديك ؟ هل آلمتك يا عزيزتى ؟ تناسى ما قلت .. سأكتفى بما هو موجود . ولتأت كل لحظة منفصلة من لحظات الجمال إلى حيثة طائر غامض من عشه غير المنظور فى الظلام ، حاملا رسالة الموسيقى . دعينى اجلس أبداً بأملى على حافة الحقيقة ، وهكذا أنهى أيامى .

المشهد التاسع

[جيترا وآرجونا]

جيترا (وقد لبست عطافاً) : — مولاى هل افرغت الكأس حتى آخر قطرة فيها ؟ أحقاً أن هذه هى النهاية ؟ كلا ! فانه حين ينتهى كل شىء ، فلابد من شىء واحد يبقى ؛ وهذا آخر قربان أقربه تحت قدميك . لقد جلبت معى من الجنينة أزهاراً لا نظير لها فى الجمال أريد أن أعبدك بها يا إله قلبى . فاذا انتهت الشعائر ، ونذوت الأزهار ، فلأرمها خارج المعبد . تكشف عن ثيابها الأصلية ثياب الرجال . أنظر الآن إلى عابدتك بعينيك النبيلتين ؛ لست بالجميلة التامة الجمال ، جمال الأزهار التى أتعبد بها ، ففى جملة عيوب ولطخات . ما أنا سوى مسافر فى طريق العالم الكبير ، فخلنى قذرة ، وقدماى تنزف الدم مما فيهما من أشواك . أنى لى أن أتم صنع زهرة الجمال الظافر من حياة لحظة . إن الهدية التى أنا بحضور بتقديمها إليك هى قلب المرأة ، فيه تتجمع الآلام والأفراح كلها ، وفيه تتجمع آمال ابنة التراب فى مخاوفها وحيائها . هنا ينبعث الحب مكافحاً الحياة الخالدة ، هاهنا القمص المنطوى على النبل والعظمة فاذا انتهت خدمات الأزهار ، فتقبل هذا يا سيدى خادماً فى الأيام القابلة .

إنى أنا جيترا بنت الملك ؛ لعلك تذكر يوما جاءتك فيه امرأة إلى معبد الاله شيفا محملة الجسم بالزينة والتهاويل ، تلك المرأة الجسور ، جاءت إليك لتداعبك كأن لو كانت رجلا ، فنهرتها وقد أحسنت صنعاً ، مولاى : إننى أنا تلك المرأة وكانت هى نفسى متنكرة . . . ثم إنى بنعمة الآلهة أصبت غاية ما يستطيع البشر تقمصه من البهاء ، وأتعبت قلب حبيبى البطل بذلك الحمل من الخداع . فأنا على التحقيق لست تلك الحسناء . أنا جيترا ؛ لا أنا بآلهة تعبد ، ولا أنا كذلك موضع الشفقة الممتهن الذى ينبذ نبذ الهوام بلا اكتراث فان تفضلت بأن أبقيتنى بجنبك . فى ممر الخطر والاقدام ، وسمحت لى أن أن طرك أعباءك فى الحياة ، فستعرفنى ، حق معرفة عندئذ . إن جاء ولدك الذى فى رحمى الآن ذكراً فسأعلمه بنفسى كيف يكون آرجونا آخر ، وسأرسله إليك منى آن الأوان . وعندئذ ، وأخيراً ستعرفنى المعرفة الحقة . إنى لا أستطيع إلا أن أقدم لك اليوم جيترا ، آتية معك .

آرجونا : يا حبيبتى ، لقد اكتملت حياتى .

طاغور

تعريب فخرى شهاب